من وحي الصوم :

هيام المتصوفين

للشيخ محمد رجب البيومي

(بقية ما نشر في العدد الماضي)

مَن مِن الناس غير المتصوفين يلوذون بالمقابر الموحشة في الفياهب الحالكة ، وكأنهم يخفون إلى رياض مونقة يداعبها عاطر النسيم ؟

إقرءوا ما سطره البهلول في سكون الأجداث ، وتمالوا معي نتساءل كيف أوحت إليه من المعاني الممتازة ما توحيه الجنان الضاحكة لشاعر مطبوع ؟ ! أليس هذا من العجيب ؟

وما تقولون في الأحلام الساحرة التي يشاهدها القوم في تلك الأماكن الباكية ؟ وهل علمتم أن منهم من رأى في منامه قبوراً تنشق وتخرج منها طيور مجنحة تملأ الأفق ، ثم يسطع نورعلوي من السماء فيلبس الأجداث حللا بيضاء ، ويهب نسيم عاطر فينعش الأموات !!

خيال غريب ، وتزداد غرابته حين نعلم أنه استمد أصوله من الأشلاء المتناثرة ، والظلام الدامس ، والحجارة الصماء !

أضف إلى ما تقدم كله ، ما عرف عن القوم من السهر الطويل ومحاربتهم النوم بشتى الوسائل ، ولعلهم يجدون في سكون الليل سلما إلى التحليق في أجوائهم العالية ، فقد شاع لديهم أن أعمال المؤمن تتبدد وتتلاشى إذا عرفها الناس ، أما الأعمال المستترة فهي الباقية الدائمة ، ومن ثم لا ذوا بالظلام وتسربلوا ثيابه السوداء ، فنشطوا للعبادة نشاطاً يغبطون عليه !! وتفرغوا للركوع والقيام فإذا نشر الفجر أجنحته تحسروا كثيراً لرؤية الضياء !!

أي سلاح كانوا يستعينون به في مصارعة هذه الأهوال ؟ !

لا شيء غير الصبر الجميل ؛ فقد وطنوا أنفسهم على تحمل كل مكروه ؛ وهم يرحبون بالأذى في الله ترحيباً يفوق كل ترحيب؛ ولهم في ذلك روائع مدهشات . قال ذو النون المصري : دخلت على مريض أعوده فسمعته يئن فقلت له : ليس يصادق في حبه من لم يصبر على ضربه . فصاح من أعماقه : لا ولا صدق في حبه من لم يتلذذ بضربه ! وهذا رد مسكت بليغ وقد صدقت بدون وهي

فأعجب الصبية بهذه الفكرة الجبارة وأقروها ، ثم وزعوا فيما بينهم إحضار المواد اللازمة . فأجير البقال تبرع بالزجاجات الفارغة ، وأجير الميكانيكي تبرع بالبنزين ، وغيرهم تبرع بالفتيل والكبريت .

ورسمت الخطة ... وهي أن ينتشر الصبية على سور المتحف الفلسطيني ، وعند ما تمر سيارات البوتاس بهذا السور يصرخ موسى : « عليهم » ! . . فيقذفون الزجاجات دفعة واحدة ، وينتهي الأمر .

وهكذا كان ... إذ بينما كانت تسير السيارات في حولها بالقرب من سور المتحف الفلسطيني قذفها الصبية بزجاجات البنزين ، فسقط بعضها في الطريق واشتعل ، وسقط غيرها على جوانب السيارات والتهب ... وسقط غيرها على أسطحة عربات السواقين واحترق .

ولما رأى من في داخل السيارات أن النار تشتعل هنا وهناك قفزوا منها ظانين أنهم وقعوا في شرك ضرب ... وفي هذه اللحظة تقدمت بعض مصفحات الجيش لإنقاذ الموقف ، وضرب المشاة طوقاً حول مكان الحادث ، وراح غيرهم يبحث عن المهاجمين في حديقة المتحف الفلسطيني فوجدوهم مستلقين في نواويس رومانية قديمة ! . .

واكتفى الضابط باعتقال موسى ، فوضعه في مصفحة وسار به مع القافلة متجهاً نحو الأحياء اليهودية ، وكان كلما مر به على جمع من اليهود أمره بأن يطل عليهم من الكوة ... ثم يأخذ أذنه بين أصبعيه ويفركها قائلاً : إذا عدت إلى ارتكاب مثل هذه الأعمال قبضت عليك ثانية وأنزلتك في هذه الأحياء ! . . ثم أعاده إلى أهله .

وفي صباح اليوم التالي رؤى الصبية مجتمعين في مكان ما في القدس ، وقد أفرقوا رؤوسهم في جريدة صباحية يفتشون فيها عن أبناء معركتهم ! . .

نجاتي صدقي

وأنا أطالعه فى مصارع العشاق .

وشبيه بذلك ما حكاه على بن سعيد العطار قال : مررت بكفيف مجذوم وفوقه زنبور يقع عليه فيقطع لحمه ! فحمدت الله أن عافانى مما ابتلاه ، فصاح فى وجهى : « ما دخولك فيما بينى وبين الله ؟ فوعزته لو قطعنى إرباً ، وصب علىّ العذاب صباً ، ما ازددت له إلا حبا » فما رأيكم فى هذا الرد الآخر ؟ إن صحائف المتصوفين ازدحم ازدحاماً بأمثال هذه الروائع . وهى عبر تخلق من الشكلى الصارخة حجراً صلداً لا ينبس بنت شفة وإن فارقها أعز الأبناء !

إن العارفين بالله يرون الأذى الجسمى امتحاناً سماويا ، ولا تصدق محبتهم إلا إذا قابلوه مقابلة طيبة ووقع من نفوسهم أطيب موقع وأرضاه ، وقد يبدو لبعضهم أن يمتحن أصحابه بالإيذاء كما يمتحن المولى عبيده بالأوصاب ، فقد زار أبا بكر الشبلى جماعة من أحبائه وهو مريض بالمارستان ، فسألهم عن مجيئهم ، فقالوا إنا محبوك يا أبا بكر ، فرماهم بحجر كان فى يده ، فلاذوا بالفرار وصاح بهم الشبلى : يا كذابون ، لو صدقتم فى محبتكم ما هربتم وكأنى به وقد رآى فى ربه أعظم مثال للاقتداء !!

ولنا أن نتساءل : أكان المتصوفون يشعرون شعوراً تاماً بشدة ما يكابدونه من أنواع الإيذاء ؟ أم أن فيهم من وصل إحساسه إلى درجة يهون معها التعذيب كما تنطق بذلك بعض الروايات ؟

أرجو أن يكون القارىء واسع الصدر فلا يتعجل بتكذيب ما نعرضه بين يديه ، فلن نرسل الكلام إرسالا بدون تعليل وتدليل ، وإن كنا نتكلم فى خوارق بعيدة ، تفعل بالعقول — بادىء ذى بدء — ما تفعله الزلازل فى قنن الجبال .

فهل صحيح ما روى عن أحد الأقطاب أنه كان يسير على الماء وحوله الموج المتلاطم يتراكب بعضه فوق بعض ، وكأنه يسير فى طريق ممهد يدرج عليه الناس !!

وهل صحيح أن الشبلى كان ينتف اللحم من وجهه بمنقار حاد ، فإذا سئل عن ذلك قال : ظهرت الحقيقة ولست أطيقها فأنا أدخل على نفسى الألم لأحس به ولكن هيهات هيهات !!

وهل صحيح أن أبا الحسن النورى سمع منشداً يقول :

ما زلت أنزل من ودادك منزلا تتحير الأفهام دون نزوله

فتواجد وهام فى الصحراء ثم وقع فى أجمة قصب قد قطع وبقيت أصوله كظبا السيوف ، فكان يمشى عليها ويعيد البيت إلى الغداة والدم يسيل من قدميه ، ولا يشعر بشىء من العذاب !

إن فى كتب التصوف أقاصيص عديدة من هذا الطراز ؟ فهل نحكم عليها بالوضع والاختلاق ؟!

سنجد كثيراً من الناس يلوون ألسنتهم ويقولون فى تهكم بالغ : خرافات كاذبة ، ما كان لكاتب أن يسطرها فى صحيفة الرسالة الغراء !!

ونحن — فى الرد على ذلك — لا نستشهد بما سطره المتقدمون فى بطون الأسفار ، ولكننا ننتقل إلى القرن العشرين لنرى ما يجد فيه من خوارق العادات .

لقد نقلت مجلة الهلال بعددها الصادر فى أغسطس سنة ١٩٤٧ عن مجلة « انتير » الفرنسية ، حوادث مدهشة تفوق ما قدمناه ؛ وقد اعترف بها كثير من أساطين العلم الحديث ، ولم يعدموا لها التعليل العلمى ولو أنها سطرت فى كتب المتصوفين لقوبلت بكثير من الاستخفاف . ولا نحب أن نطيل على القارىء ، ولكن نضع أمامه هاتين الحادثتين — مما ذكرته الصحيفة الفرنسية — وله أن يقول فيهما ما يشاء .

١ — كان « ريشادسون » الفرنسى يضع الجمر فى فمه ويمضغه فلا يصاب بأذى ، وقد وضع على لسانه جمراً فوقه قطعة لحم ثم قدمها ناضجة بعد دقائق إلى من شاهدوه من العلماء ! !

٢ — قام الهندى « كودابوكس » بتجربة رائعة فى انجلترا أمام رهط من رجال العلم والصحافة أثبت فيها قوته الخارقة على مقاومة الاحتراق بالنار ، فقد حفروا حفرة طولها أربعة أمتار وعرضها متر ونصف وقد ملئت بالحشب والحطب ، واضرمت فيها النار حتى ارتفع لهيبها ، وجعل الهندى يمشى فى ذلك الأتون الملتهب ذهاباً وجيئة من أول الحفرة إلى آخرها ، وفحصت قدماه بعد ذلك فلم يظهر بهما أثر من آثار النار ! !

فما رأى القراء فى هذه الخوارق ؟ وإذا صحت على يد أناس لا يتصلون بالسماء ، فكيف ننكر أشباهها على الأولياء !

إن الإنسان العادى قد يوجه تفكيره إلى ناحية هامة تستولى

على إدراكه فلا يشعر بشيء سوى ما يفكر فيه . وقد قرأت في الصحف ذات يوم ، أن النار قد شبت في حجرة ريفية وكان بها طفل صغير ، فاقتحمت أمه النار ، وأنقذت ولدها ثم خرجت إلى الناس واللهب يمزق قدميها وهي لا تشعر به حتى نبهها الحاضرون فليت شعري هل يحس بألم جسدي من يرى بعينيه أنوار السماء سهما مزق جسده الرصاص ؟ !

أفيئوا إلى قلوبكم أيها القوم فإن الحق يتسرب إليها بدون استئذان ؟

لماذا نسير في طريق معوج ولا نلجأ إلى الصراط المستقيم ؟ ألسنا نعرف أن القرآن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فماذا قال هذا الكتاب ؟ !

لقد ذكر أن امرأة العزيز جمعت صواحبها وأعتدت لهن متكأ وآتت كل واحدة منهن سكيناً ، وقالت (ليوسف) أخرج عليهن ؛ فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم . فهل تمترى في ذلك بعض امتراء .

لقد أبدع اليافعي رحمه الله حيث قال في التعليق على هذه الآية الكريمة «وهذا في محبة مخلوق فكيف في محبة الخالق ، ولا ينكر ذلك إلا من لم يذقه » وأنا أقول زيادة على ما تقدم ، إن عدم الإحساس بتقطيع الأيدي كان تعلة لامرأة العزيز وهي حينذاك مدعية كاذبة ، فكيف تنكر نظائره على السيرة من الأولياء ، أما معجزة يوسف فهي تأويل الرؤيا بدون نزاع .

إذن فقد آن لنا أن نعترف بما قدمناه عن المتصوفين فنجزم أن الشبلي لا يحس بتقطيع لحمه ، وأن النووي لا يشعر بتقاطر دمه ؛ ونصدق قول الجنيد رحمه الله « كنت أسمع السري يقول : قد يبلغ بالعبد إلى حد لو ضرب وجهه بالسيف لم يشعر به . وكان في قلبي من ذلك شيء حتى بان لي أن الأمر كما قال » .

والواقع أن هذه الخوارق العجيبة هي التي جذبت الخاصة والعامة إلى هؤلاء المتصوفين فكانوا أقوى سلطاناً من الملوك ، وكان العارف يعتصم بجبل نازح فتخف إليه الوفود تلو الوفود ، وقد يقول الرجل كلمة فترفع الخامل وتسقط النابه ، بل إن أمراء المؤمنين كانوا لا يستنكفون من الخضوع لما يمليه الزهاد ، وأخشى أن أعرج على شيء من ذلك ، فأخوض في حديث معاد !

هل أتاكم نبأ أبي سعيد أبي الخير ؟ لقد كان مريدوه يتضاربون بالسيوف حرصاً على ماء وضوئه ، والسعيد من حصل على قطرة واحدة يُضيء بها جبهته . ويذكرون أن قطعة صغيرة من قشر البطيخ قد سقطت منه ، فتهالك عليها الناس واشتراها أحدهم بعشرين ديناراً . فهل بلغ هذه المنزلة في النفوس أمير أو وزير ؟ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

ولقد ظهر انكباب العامة على العارفين في حلقات السماع ، حيث كان لكل متصوف مجالس إنشاد تقام في أوقات معينة ، فما يحين ميعادها حتى تتدافع عليه الناس من كل حدب وصوب ، وطبيعي أن يكون المنشد ويسمى (بالقوال) حسن الصوت ، لطيف الذوق ، فيختار من الأبيات الرقيقة ما تطرب له المشاعر وتهيج به القلوب ، حتى كان بعضهم يصيح من وجده ، وأحياناً تأخذه النشوة ، فيهيم على وجهه في الآفاق كأنما نشط من عقال .

إن للصوت الجميل أثره البالغ في الإحساس ، فما ظنك إذا اقترن بمعنى سماوي رائع ، ثم سمعه صب ذواق يدرك ما يهدف إليه عالم الإدراك ؟ أليس من القليل عليه أن يترنح ذات اليمين وذات الشمال كمن دارت برأسه الخمار .

وقد يرق شعور المتصوف فيسمو إلى مالا تحيط به عين ، وإذ ذاك يقف في مكانه لا ينطق بشيء . وليس ذلك في مجلس السماع فحسب ، بل في كل موقف تهطل فيه سحائب الرحمة ، فقد وقف أبو بكر الشبلي على عرفات مدة طويلة فلم تتحرك شفتاه بشيء ، وللحجاج حوله ضجيج وعجيج ، فهل يكون هؤلاء أكثر رغبة منه إلى الله ؟ أم أنه شاهد ما خفي عن غيره فعقد الموقف لسانه ، ورجع إلى مقره شارد العقل متقد الضلوع .

إن كثيراً من المتصوفين يتخيلون أنفسهم تحلق في عالم آخر وتشاهد أضواء متألقة لا تتاح لأحد . وقد سئل بعضهم في ذلك فقال : والله لو غاب عني لحظة لتقطعت « وهم يجزمون أن العارف الصادق يصبر عن كل شيء عدا رؤية مولاه . وقد وقف رجل على الشبلي رحمه الله فقال له أي الصبر أشد على الصابرين ؟ فقال الصبر لله ! فقال الرجل : لا . فقال الشبلي : الصبر مع الله ، فقال الرجل لا ، فغضب أبو بكر وقال : ويحك فأي شيء إذن ؟ فقال الرجل : بل الصبر عن الله عز وجل . فصرخ الشبلي صرخة كادت تتلف

روحه ، وكأنه رأى صاحبه قد سبقه فى الطريق فعنف نفسه أحر تعنيف وأقساه ! !

وكثير منهم من يذرف الدموع الغزار حين يخطر بباله أنه غير أهل لمحبة ربه . كيف وقد وقر فى نفوسهم أن ما على الأرض من حيوان ونبات وجماد يسابقهم مسابقة شديدة فى الافتتان بخالقه ، فهم يتنافسون فيما بينهم منافسة حادة تضطرم فيها الأحشاء . ولهم فى هـذا الصدد نوادر غريبة ، فقد حكى سهل ابن عبد الله أنه قابل ديباً فى فلاة فجادثه وناقشه ! ! وعلم منه أنه — مع فريق من الوحش — هائم فى ذكر ربه ! ! فما منشأ هذه النادرة ؟ وهـل استنبطها سهل من قول الله « وإنْ من شىء إلا يسبح بحمده » وما موقفه بعد ذلك بين يدى نفسه حين يرى أنه بالنسبة إلى غيره ليس فى الطير أو النفير ! مسكين مسكين ! !

وإذا غرق العارف فى لجج الصبوة لم يجد فى قلبه فراغاً يسع شيئاً آخر غير ما هـو فى سبيله ، ولذلك كان الصوفيون رهباناً لا يتزوجون ولا يتنعمون ، مع أنهم ينضوون تحت لواء الإسلام ! !

هل سمعتم تحذير مالك بن دينار من الزواج ؟ وهل فكرتم فى علة ذلك ؟ لأنه يرى اللذة الجسدية سبة نكراء لا يميل إليها غير الدهماء ، أم ترى ماذا يكون .

إن القوم مكبلون بما ورد فى الكتاب والسنة من الترغيب فى الزواج فبأى سلاح دافعوا عن مبدئهم الغريب ؟

لا يستطيع السامع أن يظفر منهم فى هـذا الموضوع بغير الأساطير ، وللأساطير فى نفوس العامة فعل السحر ، فهى تقوم مقام الآيات والأحاديث ، إن لم تفقها عندهم فى بعض الأحايين ، وفى الآدميين من سلبوا العقل الناصع فهاموا كالدواب ! !

وأقرأ هذه (الخرافة) أمام عالم ساذج فستجده ينجذب إليها أتم انجذاب ، وربما ندم على ما فرط فى جنب الله حين أقدم على الزواج .

« قال بعضهم كنت فى زاوية بمصر فخطر بقلبى أن أتزوج ، وقوى عزمى على ذلك . فخرج من القبلة نور لم أر مثله ، وإذا بيد فيها نعل من ياقوتة حمراء ، وشراكها من زمرد أخضر مرصع باللؤلؤ ، ثم سمعت هاتفاً يقول : هذه نعلها ، فكيف لو رأيتها ! فذهبت عنى شهوة النساء »

٣١٠٨

فما معنى هذه الأسطورة ؟ وهل يحرم من الحور فى الجنة من يتصل اتصالاً شرعياً بالنساء ؟ هذا جائز جداً فى منطق البلهاء .

إن القلب لا يتسع لأكثر من واحد ، فلا على الصوفى إذا قنع بمحبة ربه ، ولكن ما ذنب العامة من الدهماء ؟

إن للقوم شطحات وشطحات ، ولا حيلة لهم فيما يشطون به من الآراء ، فقد تفرد الله وحده بالكمال . ومن ذا الذى ترضى جميع سجاياه ؟

وبعد فقد حاولت أن أروح عن نفسى بكتابة هذا البحث ، فقد حبب إلى أن أقوم بجولة خاطفة فى ميدان التصوف النظرى فأطالع الأسفار ، واستنطق السطور ، بعد أن أخفقت فى ميدان التصوف العملى ، فقد أعددت العدة ، وسرت خطوة واحدة ، ثم وقفت كالقيد المكبول ، فلا أستطيع أن أتقدم ، ويعز علىّ أن أرجع حيث بدأت وأنا فى الاضطراب والحيرة كأسير أم عمرو الذى قال فيه أحد كبار الهائمين .

سلوا أم عمرو كيف بات أسيرها ... تحل الأسارى دونه وهو موثق

فلا هو مقتول فتى القتل راحة ... ولا هـو ممنون عليه فيطلق

(الفكر الجديد) محمد رجب البيومى

مصلحة الجمارك المصرية

تعلن مصلحة الجمارك عن وجـود وظيفة مهندس مبانى خالية بها ويشترط فى الطالب أن يكون حائزاً لبكالوريوس كلية الهندسة أو ما يعادلها وسيمنح المرشح للدرجة التى تتفق مع مؤهلاته . وتقدم الطلبات برسم حضرة صاحب العزة مدير عام الجمارك بالاسكندرية وفيما يختص بالموظفين بمصالح أميرية تقدم الطلبات عن طريق المصالح التابعين لها .

٩٧٨٠